أدباؤنا في الخارج منفيّون أم مهجريّون؟

أدب المنفى أم أدب المهجر؟ 1/2

■ عبد اللطيف الوراري ■

عبر التاريخ الثقافي، كان هناك دائماً حيّزٌ محفوظ لأدب المنفى بتعبيراته المتنوّعة والنوعيّة، من عصر إلى آخر، ومن تجربة إلى أخرى، ذاتية وجمعيّة. فأدب المنفى قديم في الآداب الإنسانية، ويتجلى حضوره في تيمات الاستبعاد والخروج والهجرة القسريّة، ويتّخذ من لحظة النفي علامة فاصلة في تاريخ الفرد والجماعة، باعتبارها لحظة انتقال نفسي ـ زمنيّ تتمّ من وإلى المكان المهجور إليه، ومن ثمّة تنطوي على شرخ في سيرة الفرد مثلما في تاريخ الجماعة. وقد شاع الكلامُ كثيراً عن المنفى ومفاهيمه في الأدب العربي الحديث، وصار واحداً من أبرز موضوعاته. ولم يدخل مصطلح أدب المنفى تاريخ الأدب العالمي إلا في ثلاثينيات القرن العشرين.

لكن «أدب المنفى» يُثير إشكالين: أوّلاً، أنّه ليس نوْعاً أدبيًا بالمعنى الدقيق، بقدر ما هو أدبٌ موضوعاتيّ يلازمه حدثٌ مهمٌ إلا وهو النفي، سواء كان إجباريًا أو اختياريًا. ويغطي أدب المنفى كل الأجناس الأدبية المعروفة من شعر ورواية وقصة قصيرة وملحمة ومسرحية، وأحيانًا يتجاوز المتعارف عليه من الأنواع الأدبية الرفيعة، ليُقدَّم في شكل يوميات أو شهادات أو سير ذاتية وغيريّة. وثانياً، أنّ مفهومه مُلْتبس وفضفاض وغير قارّ، يختفي سرعان ما يظهر مجدّداً في حُلّة مغايرة تتلوّن بألوان العصر وظلاله السياسية والسوسيو ـ الثقافية، وتبعاً للسياق التاريخي والمعرفي الذي ظهر أو أُنتج فيه. وبغضّ النظر عن المسمّيات التي أطلقها دارسو أدب المهجر الجديد، ورفض بعضهم لمسمّى «أدب المهجر» بسبب تغيُّر الحساسيّات ورؤى الكتابة، واختلاف الظروف الراهنة عن الظروف التي رافقت ولادة أدب المهجر، مُفضّلين مُسمّى «أدب الاغتراب» أو«المنفى»، إلا أنّنا آثرنا أن نأخذ بمصطلح «أدب المهجر»، لأنّه يتّسع لأدب المنفى، ويشتمل حتّى على معاني والغربة والنفي والحنين إلى الوطن والاغتراب بالمعنى الوجودي. فإن اختلفت أسباب الهجرة، واختلفت تبعاً لذلك دلالاتها وتجلياتها. فإنّ المهجر لا ينطوي على القسر الذي ينطوي عليه المنفى، بل ينطوي على درجة من حرية الاختيار، ويبقي إمكانية العودة مفتوحة دائما، حتّى وإن كانت الهجرة قسريّة أحيانا.

لم يتراجع مصطلح «أدب المهجر»، بل هو في اطراد مستمرّ غيْر حتي في الوعي بمدلول المهجر نفسه، في سياق مُعوْلم تأثرت به طريقتنا في التفكير والتأويل؛ فلم يعد المهجر مهجراً بالمعنى القديم، ولا هو ذلك المكان الذي تقل احتمالات عودة من يذهب إليه، مثلما لم يعد الأديب المهجريّ بمنأى عن مجريات الأحداث في بلده الأمّ. وهو ما يدفع بقوة مفهوم «الحضور الغياب» ـ كما طرحه «هيدجر» و«ليفيناس» و«دريدا» ـ إلى حقل الدراسات الأدبية المقارنة، حيث الإنسان والكلمات والأشياء تحضر في الغياب، وتغيب في الحضور.

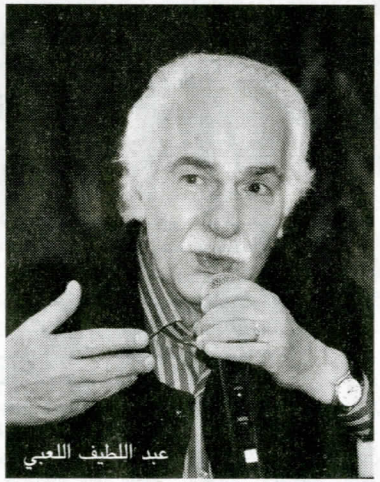
عبد اللطيف اللعبي

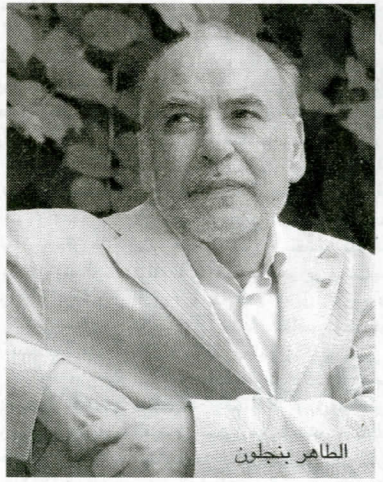
الطاهر بنجلون

المهجريّة الجديدة في الأدب

يُعاد اليوم طرح السؤال المتعلق بأدب المهجر، بقوّة وداخل تفسيرات خصبة وحادّة. وصار دارسوه يتحدّثون عمّا أسموه بـ «المهجرية الجديدة» في الأدب العربي، بعد أن هاجر المئات من الأدباء والكتّاب من بلادهم إلى دول وفضاءات وعوالم جديدة، في أوربا وأميركا الشمالية وأستراليا. وقد تأثر هؤلاء بالثقافة والمحيط الاجتماعي الجديدين، ممّا وسم كتاباتهم الشعرية والنثرية في مجملها بسمات خاصّة وجديرة بالانتباه. لكن صيغة السؤال تبدو مختلفة هذه المرّة، فالبحث عن سمات وخصائص في نصوص هؤلاء المهاجرين الجدد، قد لا يتأتى بالقدر نفسه من السهولة والوضوح التي استطاع بها دارسو الأدب تحديد سمات أدب المهجر الذي نشأ في بدايات القرن العشرين.

لقد تغيّر«أدب المهجر» العربي، وتجدّدت ظاهرة المهجريّة بصورة لافتة، وتعدّدت المَهاجر، بداية من الربع الأخير من القرن العشرين. ولقد ترتّب عن هذه الأوضاع المستجدّة ما نلمسه من ثراء نوعيّ وكمّي في الحالات والمآلات التي استقرّت عليها وضعيّة المهجر الجديدة، وهي تتدرّج من سكون اللحظة وحيادها إلى المأساوية المكثّفة، مرورا بأشكال من التغرب ونبرة الاحتجاج والإحساس اللوذعي بسؤال الوجود والكينونة لم يكن يعرفها ويرقى إليها وعي المهجريّين الأول. وفي خضمّ ذلك، انخرط المئات من الأدباء في الكتابة باللغة العربية أو باللُّغات الأجنبية (الفرنسية، الإنجليزية، الألمانية، الهولندية، الإسبانية وسواها)، وقد امتزجت في كتاباتهم هموم أوطانهم بالواقع الذي يحيونه في الدول المضيفة، وتوحي تجاربهم في الغربة بذكريات طفولتهم ونشأتهم الأولى، وهو أهمّ ما يشكّل أدبهم ومفهومهم للكتابة والتخييل، مستثمرين الهجرة كأفق للكتابة، وعاملين في أفق «الهوية المفتوحة»، وجدلية «الأنا» و«الآخر» غير القابلة للانفصام.

وفي هذا السياق، من المهجريّين من بقي مندمجا في حركة الثقافة العربية في الداخل، ومستكملاً عناصرها بوجودهم الشعري على مستوى النصوص والمشروعات الشعرية أو الحضور الثقافي، ومنهم من ظل تابعاً للمراكز الثقافية الكبرى، وهم بذلك يُكرّسون مركزيّة المركز الثقافي وينتفعون منه أيضا، وهم نفرٌ غير قليل. لقد بدت المهجرية الجديدة كأنّها «تبدأ من الانقطاع التامّ عن أيّ ماض وإرث للمكان الجديد، سواء ماضيها الشخصيّ والثقافي، أي كينونتها هناك في الداخل، والانتماء إلى مشروع ثقافي أوسع هو مشروع الحداثة العربية»(3). ومن جملة الآداب التي طبعتها ظاهرة المهجريّة الجديدة بقوّة، هناك الأدب المغربي المكتوب بالعربية أو بغيرها من اللغات الأجنبية.